الفصل التاسع والعشرون

منهج البحث فى العلوم الانسانية

تمثل العلوم التى تدرس الإنسان فى مقابل العلوم التى تدرس الطبيعة مشكلة كبيرة من مشاكل علم مناهج البحث من كل النواحى .

فمن ناحية الاسم : مازالت هناك اختلافات فى تسمية هذه العلوم . وذلك بسبب الاختلافات فى موضوعها ومنهجها ودورها فى المعرفة الاجتماعية ووظيفتها فى المجتمع .

فقد سميت « الآداب » من جهة أنها تدرس موضوعات لا تنسب إلى العلوم الموضوعية وأنما تنتسب إلى وجهات نظر ذاتية تتسم بالتحيز العاطفى نحو ما يمت إلى الشخص بصلة ، ولذلك سميت الكلية التى تضم الأقسام التى تدرس هذه الموضوعات باسم (كلية الآداب) أشارة إلى أنها تدرس موضوعات من قبيل الشعر والقصة والرواية والخطبة والرسائل الوجدانية .

وسميت كذلك العلوم الفلسفية أشارة إلى أنها كانت من موضوعات الفلسفة ، ثم انفصلت عن أمها الفلسفة واستقلت بحدود خاصة تميزها عن الفلسفة التى تبحث بحثا عقليا شاملا فى الوجود الكلى ، بينما يختص كل علم منها بجزء من الوجود يقتصر عليه فى بحثه ، ولذلك عرفت أيضاً بالعلوم الفلسفية الجزئية .

وسميت كذلك الاخلاقية Moral sciences أشارة إلى أنها ترمى إلى تهذيب أخلاق الناس وترقية سلوكهم .

وسميت أيضا العلوم الاجتماعية من حيث أنها تدرس الإنسان الذى لا يمكن أن يعيش إلا فى مجتمع . ومن حيث أن المجتمع هو مصدر كثير من الظواهر التى يتميز بها السلوك البشرى .

وسميت كذلك العلوم العقلية من جهة أنها تعتمد على التفكير العقلى الخالص فى منهج البحث ، ومن جهة أنها تقابل العلوم المادية التى تدرس المادة ، واعتمادها على العقل راجع فى جزء منه إلى أنها عند كثيرين لا تقبل أجراء التجارب فى أبحاثها مما جعل البعض يسمونها العلوم النظرية .

وقد اعترض بعض العلماء على تسميتها (بالعلوم) من ناحية أن العلم يتميز بأنه دراسة منهجية منطقية لمجال معين بقصد معرفة العلاقات الثابتة بين الظواهر معرفة صحيحة وصياغتها فى صورة قوانين ، فالقوانين هى الغاية من كل دراسة علمية محققة .

ولكن تلك العلوم الانسانية لا تتوافر فيها شروط الوصول إلى القوانين فلم تعرف هذه الدراسات حتى الآن قوانين مثل قوانين العلوم الطبيعية ، ولذلك رفض بعض العلماء تسميتها باسم (العلوم) وأكتفوا بتسميتها « بالانسانيات ، أو الدراسات الاجتماعية » .

ومن ناحية الموضوع تعددت موضوعات هذه العلوم حتى بلغت عدداً يتزايد كل يوم بسبب مايتكشف من زوايا لبعض الموضوعات اختلفت النظرة إليها من علم إلى آخر ، فرؤى أفرادها علماً مستقلا مثل علم الاكيولوجيا الذى يدرس صلة الانسان بالمكان (البيئة) وهو موضوع من موضوعات الجغرافيا .

وثمة تنازع بين علوم الانثروبولوجيا والجغرافيا الاجتماعية والحضارة والتاريخ والاثنولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم نفس الشعوب بسبب تداخل الحدود بينهما .

وكذلك بالنظر لتعقد الحياة الإنسانية وكثرة التأثيرات التى تؤثر عليها . وبسبب اختلاف وجهات النظر إلى الموضوعات ، تلك الوجهات التى ترجع إلى اختلافات النشأة الاجتماعية .

ومن ناحية المناهج . نجد أنه بينما استقرت العلوم المادية على المنهج التجريبي الذى أسفرت عنه القوانين العلمية التى قامت على تطبيقاتها الحضارة الحديثة ، فإن الدراسات الانسانية مازالت تجاهد حتى الآن فى سبيل الوصول إلى المنهج القويم الذى تطمئن إليه ويحقق لها النتائج اليقينية الى تطمح إليها .

لقد أخذ علماء هذه الدراسات بكثير من المناهج التى سنعرض لها بالتحليل والتقييم .

ومن ناحية القوانين : نجد أنه بينما وصلت العلوم المادية إلى القوانين التى استوعبت سائر المجالات المادية من طبيعية وحيوية ، فإن الدراسات الإنسانية لم تصل بعد إلى قوانين شبه يقينية . وكل مابلغته نتائج إحصائية أو تفسيرات راجحة ، ولكن بعض الفلاسفة مثل جون ديوى رأوا أنه ليس من الضرورى أن يشتمل العلم على هذه الشروط . أو تكون كل العلوم ذات طبيعة واحدة ، فمن الممكن أن تكون العلوم الإنسانية بسبب طبيعتها الخاصة ذات مناهج خاصة ونتائج تتفق وطبيعتها المرنة مرونة الحياة الإنسانية وتعدد مظاهرها .

ومثل الأستاذ هكسلى الذى يقول : أنني أقصد بالعلم كل معرفة تقوم على التعليل والاستنباط ، ومثير الكسندر هل الذى يقول « كل معرفة معقولة فهى علم » ولكن كثيرين يرفضون هذا الانتباه .

وقد انعكس التقدم المنهجى فى بحث العلوم المادية على منهج البحث فى العلوم الإنسانية فتقيدت بروح العلم الحديث وكفت عن البحث فى الأمور الغيبية واقتصرت على دراسة الواقع واعتبرت أن كل مايقوم به الإنسان ليس إلا ظواهر يدرسها العلم لذاتها فى ظروفها المحيطة بها دون أن يحاول ردها إلى مبادىء دينية أو فروض ميتا فيزيقية

ورأى العلم الحديث أن الظاهرة الإنسانية تتميز بما يأتى :

أنها خاصة بالإنسان وحده دون غيره من الكائنات الحية .

وإن الإنسان هو مصدرها وليست مفروضة عليه من قوى غير إنسانية فهو فاعلها والمسئول عنها .

وأنها تعبر عن حاجات الإنسان المادية والمعنوية وصراعه من أجل البقاء والقوة والحضارة .

وأنها تخضع لما يخضع له الإنسان من ظروف والزمان والمكان والطبيعة الإنسانية المحدودة .

وأنها ليست جامدة ولا محدودة ولاثابته مثل المادة ، بل أنها على العكس من ذلك مرنه ومتغيرة .

وأنها رغم عموميتها تتخذ فى كل فرد صورة فردية بسبب اختلاف الأفراد فى ميراثهم الاجتماعى وتكوينهم النفسى .

وأنها مرتبطة بتصورات ذهنية تتأثر بالثقافة السائدة أى أن فيها جانباً عقليا

وأنها متشابكة مع ظواهر طبيعية وإنسانية كثيرة ولا يمكن فصلها عنها .

وأنها لاتتقيد بالحاضر بل تتأثر بالمستقبل والغايات الموجوة .

وأنها لا تظهر بنفس الصورة فى المواقف المتماثلة ، إذ يغلب عليها النمط لا المظهر الواحد .

وأن المجتمع يكون عنصرا هاما من عناصر بنائها أو تركيبها .

طموح العلوم الإنسانية :

وبسبب تشابك الظواهر الإنسانية وتأثرها منهجياً بذاتية الباحث ، فإن كثيرا من العلوم الإنسانية زعمت لنفسها الشمول . ورأى أصحابها أنها علم يستطيع البحث فى جميع الظواهر الانسانية على اختلاف أنواعها ومجالاتها .

فمثلا علم الجغرافية ، وقد نشأ أصلا علماً يصف الأرض باعتبارها موطن الإنسان ومنبت حياته ومسرح نشاطه ، تطور به علماء الجغرافية حتى صاروا يعرفونه بأنه العلم الذى يدرس العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة ، وبذلك أدخلوا ضمن مجال الجغرافيا كل حياة الإنسان وسلوكه فى الماضى والحاضر بل

والمستقبل ، سواء كانت هذه الحياة اقتصادية أم سياسية أم اجتماعية أم دينية أم لغوية ، وقالوا عن علم الجغرافية بناء على ذلك إنه علم العلوم . وغفلوا عن أن مايوجه سلوك الإنسان ليس هو حاجاته البيولوجية وحدها ، وإن الانسان قد يتحدى الظروف البيئية ويثور عليها خضوعا لمبدأ أو غاية روحية ، وأنه قد يغير البيئة لكى تتلاءم مع حاجاته الثقافية التى تتعارض مع حاجاته البيولوجية (فالناس يموتون فى الهند من الجوع ومع ذلك لايجرأون على ذبح البقر الذى يسرح فى الشوارع فى حرية تامة) .

وقد نبهنا إلى هذا الخطأ دراسات علم الاجتماع التى أظهرت ماللمجتمع من سلطان على حياة الإنسان وعلى البيئة أيضاً ، وأن ثقافة المجتمع فى كل مرحلة من مراحل تطورها هى التى تفرض نوع النظام الاقتصادى أو السياسى أو الدينى أو الأخلاق ولو كانت البيئة هى مصدر النظم الاجتماعية لظلت المجتمعات على حالة واحدة من الثبات ، وما أظن الجغرافيين يزعمون أن العقل الإنسانى من إنتاج البيئة ، وإلا لكان فى الإنسانية عدد من أنماط العقول بعدد مافيها من البيئات ولما قام منطق إنسانى مشترك .

وبسبب اعتبار علم الاجتماع أن المجتمع هو مصدر جميع النظم والظواهر الاجتماعية فقد زعم هو الآخر أنه « علم العلوم » وأن بامكانه أن يفسر جميع الظواهر الإنسانية .

وكذلك فعل علم النفس فقد تطاول إلى محاولة تفسير جميع الظواهر الإنسانية سواء أكانت فردية أم جماعية ، تاريخية أم حاضرة ، بردها إلى عوامل نفسية شعورية أو لاشعورية ، غريزية أم مكتسبة . وبذلك أرجع السلوك الإنسانى إلى واحد من الأسباب مما يتعارض مع شروط المنهج العلمى السليم .

كما غالى علماء الاقتصاد فأرجعوا السلوك الإنسانى كله إلى عوامل اقتصادية وبذلك أغفلوا سائر العوامل المتعددة التى توجه سلوك الأفراد والجماعات وهى

عوامل قد تتعارض مع مبدأ الاقتصاد فى الوقت أو المجهود أو المال فنحن قد نضحى بالنفس أو بالمال من أجل المبدأ أو الوطن .

ولا يرجع شطط هذه العلوم إلى تشابك الظواهر الإنسانية فقط ، ولا إلى أن موضوعها جميعاً هو الإنسان ، وإنما يرجع بجانب ذلك إلى طموح العلماء ولهفتهم إلى الوصول إلى علم شامل يستطيع أن يمدهم بتفسير جامع لحياة الإنسان كلها ، تلك الحياة المعقدة التى تستعصى على كل تفسير سابق على التجربة .

كما يرجع هذا الشطط إلى ميوعة الظاهرة الإنسانية ، وعدم القدرة على تحديدها ، وخطأ فصلها عن سياقها الزمنى وبيئتها الثقافية ، وإلى تعدد جوانبها .

وكذلك يرجع إلى أن الظاهرة الانسانية داخلية فى الباحث ، فمن الصعب أن ينفصل الباحث عنها ويدرسها كموضوع مستقل عن وجدانه .